

دور نهج التّعميد التربوي وتعليم الحياة في تحقيق الاندماج العالمي عند إدغار موران

د/ نسيمه حياهم

دكتوراه في فلسفة القيم وإبستمولوجيا العلوم إنسانية، الجزائر، hayahemnassima@gmail.com

المخلص:

نهدف في هذه الورقة إلى بيان الأسس والمبادئ التي يجب أن تبني عليها التربية عموماً والتّعليم بأطواره المختلفة منها التّعليم العالي خصوصاً، على طبق رؤية الفيلسوف وعالم الإجماع الفرنسي إدغار موران (1991) Edgar Morin ، لذا كان من المناسب البحث في أزمة التّعليم دون أي تحديد جغرافي ومناخي لاكتشاف الإشكاليات التي تواجهه، والمباني التي تمّ تقديمها من طرف المختصين لمواجهتها، ثم نقف بين يدي موران لنرى المباني التي قدمها كفتح لمواجهة أزمة التّعليم، ولم أعقد فصلاً لبيان كل الرؤى والمباني بل أشرت إليها في ثنايا البحث باختصار، لأنّ المراد في هذا المقال هو تسليط الضوء على مباني موران وكيفية تفعيلها في تحقيق التّمية والنّهوض بالتّعليم عموماً، والتّعليم العالي خصوصاً.

المقدمة:

يعدّ إدغار موران من بين الفلاسفة المعاصرين الذين حاولوا إصلاح النّظم التربوية والتّعليمية، وتغيير مبادئها وأسسها، التي بنيت عليها معارف مبتورة ومنقوصة وبسيطة، تتنافى والتنوع والتعدّد والتّعميد الذي تشهده الحياة الأرضية، ومع تنامي الخطأ والوهم والعنف وسوء فهم الآخر أصبحت المهمة أكثر صعوبة. ورغم ذلك لازال يقوم -حسب اعتراف الفيلسوف الفرنسي "فرنسو ليفونيه- بجهود كبيرة في وزارة التربية من خلال محاولاته الدؤوبة إصلاح البرامج التربوية، ويحاول اقناع المختصين على تلك البرامج من خلال القيام بإزالة الحواجز بين الأنظمة ولما لا تربية المربين عن طريق إعادة صياغة سؤال ماركس: "من يربي المربين"¹، فالعملية التّعليمية يجب أن تركز على كافة العناصر: معلّم، متعلّم، معارف.

1- أزمة التربية والتّحديات الإبستمولوجية المتعدّدة

لاشك أنّنا في زمن متأزم، وذلك بشهادة الباحثين والمختصين في جميع الميادين الاجتماعية والنفسية والاقتصادية وحتى التربوية والتّعليمية، بمعنى أنّ الأزمة كلفظ يمكن أن نطلقه على العصر الزّاهن، وإذا قلنا أنّ العصر عصر أزمة، أو عصر متأزم، فالمقصود من ذلك: "أنّه بلغ نقطة حرجة، أو بعبارة أخرى، إن تحوّلاً، عمقه يزيد أو ينقص، على وشك الوقوع، وأنّ تغييراً في الاتجاه سيحدث حتماً، طوعاً أو كرهاً، بكيفية مباغتة أو متدرّجة، إما بوقوع كارثة أو غيرها"¹. وكون عصرنا متأزماً لا ينفى وجود الأزمات في عصور أخرى، باعتبار أنّ الأزمات في جوهرها اختلال في الأنظمة والتنظّمات مهما كانت طبيعتها.

أمّا إدغار موران فيرى أنّ كلمة أزمة (krisis) عند اليونان تطلق على لحظة تشخيص مرض معيّن، بينما اليوم الكلمة نفسها تدلّ على صعوبة التّشخيص وغياب اليقين¹، بمعنى أنّ الأزمة كانت تدلّ على القرار صارت تدلّ على التّردّد وغياب اليقين¹.

يستخدم موران مفهوم الأزمة بحذر وصرامة أكثر مقارنة مع غيره من المفاهيم، لأنه يمسّ جميع الميادين - كما سبق وأشرنا- لذلك يطرح سؤالاً عن ماهية الأزمة، ويقدم إجابته الواضحة على النحو التالي: "ما هي الأزمة؟ إنها تنامي الفوضى، وغياب اليقين عن نظام ما (أكان فردياً أم اجتماعياً) وتتجم هذه الفوضى عن تجميد الآلية التنظيمية وآلية الضبط - على وجه الخصوص - (الارتجاجات السلبية) أو تتسبب فيها"¹. إذن، الجانب الأزمي في أي نظام له سماته المميزة والفريدة أبرزها ظهور الفوضى وتعاضلها نتيجة غياب التحكم والتنظيم.

تتجلى أزمة التربية والتعليم بوضوح اليوم أكثر من أي وقت مضى، ولعلّ كثرة التساؤلات حولها اليوم لهو دليل قاطع على أزمتها المتجدّرة، صحيح أنّ التطور العلمي والتقني يعقبه تطور في جميع المجالات إلاّ أنّه يخلف وراءه الكثير من الأزمات. يشير إدغار موران إلى ذلك بقوله: "لقد أثمرت العلوم مكاسب لم تكن في الحسبان في مضمار المعرفة لولا أنّها مكاسب كان لها مقابل من الجهل نراه في العجز عن وضع الأشياء في سياق، وعن الرّبط بين المنفصلات وفي تعذر الإحاطة بالظواهر الشمولية الكونية"¹.

إنّ أزمة التربية عند إدغار موران معقدة ومتعدّدة الجوانب وتمسّ الأطوار التعليمية الثلاثة وحتى التعليم الجامعي، ومن مظاهر الأزمة ما يلي:

أولاً العنف المدرسي: لقد أصبح العنف ظاهرة منتشرة في الوسط المدرسي، ويتجلى في صراع بين المراهقين والكهول (المدرسين)، والمتمثّل في الصراعات المتبادلة بينهما مثل: الضوضاء واللّهو والثّرثرة والعصيان والشّتيمة والحرمان من الخروج والطرد من القسم، وهذا العنف وتلك المعاناة سواء لدى المدرسين أو التلاميذ إنّما ينتجان عن الرّؤية القاصرة، أحادية الجانب، وسوء الفهم¹.

ثانياً الحركة الطلابية: يقول إدغار موران "إنّ العالم الطلابي هو المركز الامكاني للثورات"¹ في سياق إشارته إلى دور الحركات الطلابية في تأجيج الصّراعات عن طريق تقديم أمثلة عديدة، ويرى أنّ هذه الثورات التي كانت تنفجر بين الحين والآخر هي نتيجة اندفاعات مختلفة.

في العالم الثالث أو الدّول النامية التي يطغى عليها الفساد في جميع المجالات لم تعد الحركات الطلابية تقوم بأى دور إيجابي في الدفاع عن حقوق وحريات الطلبة، وحتّى المساهمة في القيام بأدوار تنموية وتوعوية في المجتمع، بل عكس ذلك أصبحت بؤراً للفساد، ولنهب خزينة الدّولة، فتحت أعطية ظاهرة براقّة تقبع كل أنواع الفساد والانحدار الأخلاقي والاجتماعي.

ثالثاً الفصل بين الاختصاصات: وهو ناتج عن أزمة عميقة (أزمة الثقافة)، فمنذ أن تمّ الفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وحدثت القطيعة التاريخية المعروفة بين المكوّن العلمي والمكوّن الإنساني، أصبحت الأولى تنتج معارف لا تتناسب الثّانية، وتركّز على الموضوعات بدل الذات العارفة، فاقم تجزئة المعارف إلى اختصاصات عديدة وفرعية¹.

2- الثّورة البيداغوجيّة

على خطى كانط حينما طرح أسئلته الثلاث المشهورة (ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا يجب عليّ أن أعرف؟ ماذا يحقّ لي أن أملك؟) وبلاستناد إلى فلسفة إدغار موران نطرح أسئلة مشابهة على النحو التالي:

- من يجب أن نعلم؟
- ماذا نعلم؟
- كيف يجب أن نعلم؟

فالسؤال الأول يشير إلى الشريحة أو المجموعة التي تُعَلَّم، والسؤال الثاني يشير إلى المعارف الضرورية أو المادة التي يجب تعليمها، بينما السؤال الثالث يركز على المنهج والاستراتيجيات المتبعة. كل هذه الأسئلة يجيب عليها إدغار موران في كتابه "تربية المستقبل: المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل" والتي يدعو فيها إلى القيام بما يمكن تسميته "ثورة بيداغوجية" على النحو التالي:

2-1- ماذا يجب أن نعلم؟

هناك الكثير من المعارف والعلوم والخبرات التي يجب أن نُعَلَّم للإنسان، وهي على اختلافها وتتوَعَّعها تتراوح بين رئيسية وثانوية، يمكن تعدادها على النحو التالي:

أ- **تعليم الشَّروط الإنساني:** يلح إدغار موران على أن يكون تعليم الشَّروط الإنساني الموضوع الأساسي للتعليم، والمقصود بالشَّروط الإنساني تحديد ماهية الكائن الإنساني، وتحديد ماهيته لا يتم دون تحديد مستقره ومستودعه، بمعنى أن السؤال عن الشَّروط الإنساني هو سؤال عن وضع الإنسان داخل العالم، وذلك لا يتأتى عن طريق تجزئ المعارف الإنسانية والطبيعية، بل عن طريق لمَّ أجزاءها حيث تتيح الأولى تمثَّل الأبعاد والمركبات الإنسانية وتتيح الثانية موضعة الإنساني داخل العالم¹.

ب- **تعليم الهوية الأرضية:** يذهب إدغار موران للتأكيد على أن غاية التربية في الأساس هي تشكيل الهوية والوعي الأرضيين في هذا العصر الكوكبي (عصر العولمة)، عن طريق رؤية شمولية متعددة الأبعاد تبحث عن علاقة الكل بالأجزاء في بنية مركبة¹، إذن البشر لهم هوية مشتركة يجهلون بها فعل الانتماءات العرقية والثقافية والتاريخية واللغوية والجنسية والأنثروبولوجية والمصائرية، وذلك منذ القدم، لكن مع بداية القرن الخامس عشر بدأ الغزو الأوروبي للعالم امتدَّت جسور الاتصال بين القارات مما أتاح بداية الوعي بالصلات الكونية، لذلك يعتقد موران أن للعصر الكوني مروحة مزدوجة الأولى هي الغزو، العنف، التدمير، التعقيد والاستغلال، فرغم الآثار السلبية لذلك الغزو والذي سبب الكثير من الخراب والدمار خاصة على إفريقيا، إلا أنه أتاح حصول تواصل وتبادل¹، والثانية مرحلة عولمة ثانية تأكد على حقوق الإنسان والحرية والمساوات والإخاء وقيمة الديمقراطية¹

يقول إدغار موران في إشارات بالمروحة الثانية للعولمة ودورانها في صالح البشرية ما يلي: "أخيرا يحدونا الأمل في أن احتياجات النهل التي تحرك اليوم أجزاء البشرية المشتتة التي تثير الرغبة في الدفاع عن الهويات الإثنية أو القومية تتمكن من التعمق والانتشار دون أن تنكر نفسها، من خلال النهل من هوية مواطن (الأرض الوطن)"¹. هكذا يتم تجاوز الانغلاق الاثني، القومي والثقافي، وهكذا يحصل اتحاد العولمتين. إن تعليم الهوية الأرضية أو وحدة البشرية ينمي الوعي بالمصير المشترك أو وحدة المصير¹.

ج- **تعليم الفهم (أن نفهم):** إن العالم يشهد تعددية معرفية، اجتماعية، ثقافية، عرقية، علمية وتواصلية، ومع ذلك يشهد أيضا سوءا في الفهم، وربما وجود الكثير من وسائل التواصل المتاحة عمق سوء الفهم ذلك.

إنّ اللاّفهم هو المهيم بدل الفهم على الحياة المعاصرة، صحيح أنّ الطّابع الرّقمي قد سهّل التّفاهم بين المتباعدين غير أنّه هدّد العلاقات بين المقرّبين، وبالتالي فهو ذو قطبين أحدهما موجب والآخر سالب،¹ وهنا تحضر الرّسالة الحقيقية للتّعليم. يقول موران: "يتعلّق الأمر بتعليم الفهم بين الناس والذي هو الشّروط والضّامن لتحقيق التّضامن العقلي والأخلاقي للإنسانية"¹.

إنّ الفرق واضح إذن بين تحصيل الفهم واكتساب الفهم الإنساني، بين الفهم العقلي الموضوعي والفهم الإنساني البين-ذاتي، فالأول إنّما يقوم على التّفسير الموضوعي بينما الثّاني يقوم على الانفتاح والتّعاطف والأريحيّة فهو محاولة معرفة الغير، وحتى التّطابق معه، عن طريق استقطاب محبته¹.

د- تعليم أخلاق الجنس البشري: يعتبر إدغار موران أنّ أحد أهداف التّعليم الحقيقي تستلزم مناقشة أخلاق الجنس البشري، وتتعلّق بتحقيق ما يسمى "الانثربولوجيا الأخلاقية"، حيث تتّصف المنزلة البشرية بتركيبية ثلاثية هي: الفرد، المجتمع، النوع، وبالتالي يوجد نوعان من الأخلاق، الأولى قائمة على المراقبة المتبادلة بين الفرد والمجتمع (الديموقراطية)، والثّانية تقوم على العلاقة بين الفرد والنّوع أو (المواطنة الأرضية)، وممارسة البشرية على اندماج واحد أو الإنسانية الكوكبية¹، يقول موران: "بإمكاننا أن نحدّد غايتنا والمتمثّلة في الاستمرار في أنسنة الإنسانية عن طريق تحقيق المواطنة الأرضية في إطار جماعة بشرية كوكبية"¹. يقيم إدغار موران روابط متنوّعة بين الفرد والمجتمع والنّوع، حيث ينتقل من الديموقراطية إلى المواطنة الأرضية وصولاً إلى الإنسانية كمصير كوكبي، فهو يرى أنّ الديموقراطية توصيف يتيح تحقيق المواطنة الأرضية.

هـ- تعليم أنواع العمى المعرفي: الخطأ والوهم: إنّ المعرفة عند إدغار موران ليست بمنأى عن الخطأ والوهم، سواء كانت تلك الأخطاء ذهنية أو معرفية أو عقلية أو منظوماتية¹، لذلك فمهمّة التّربية أساساً هي كشف الأخطاء والأوهام ومصادرها وبعبارة أخرى: "إنّ كل معرفة معرضة للوقوع في الخطأ والوهم، ومن واجب التّربية مواجهة هذا المشكل المعرفي المزدوج، إنّ أكبر خطأ قد نرتكبه هو التّقليل من مشكل الخطأ، وأكبر وهم قد نسقط فيه هو التّقليل من مشكل الوهم، خصوصاً وأنّه من الصّعب بمكان الكشف عن الخطأ والوهم بسبب كونهما لا يتقدّمان أبداً إلى المعرفة بوصفهما كذلك"¹.

ذكر موران أنّ المعرفة لا توجد جاهزة، وهذا يعني أنّه يجب فحصها أو معرفتها حتى نميّز الصّحيح من الخاطئ والوهمي، ومن هذا المنطق أكّد على جعل التّبصر الحقيقي هو الهدف من عملية معرفة المعرفة، وكما نلاحظ فإنّ هذا الرّأي يدعو إلى أن يكون التّعليم خوضاً في طبائع المعارف البشرية سواء كانت ذهنية أو عقلية أو ثقافية، من أجل النهوض بها¹. وحينما نمعن النظر في كتابات موران نفهم منها أنّه لا يطرح معارف جديدة بل يدعو إلى المعرفة بشكل مغاير عما هو متداول، وذلك نابع من اعتقاده الرّاسخ بتسلّل الخطأ والوهم إلى المعرفة.

و- تعليم مبادئ المعرفة الملائمة: يرى إدغار موران أنّ المعرفة الحقيقية إنّما تنطلق من تحديد مشاكل العالم أو معرفة العالم كعالم، وذلك لا يتأتّى إلاّ بإصلاح منظوماتي وليس برامجي للفكر، وهذه قضية التّربية الأولى (تنظيم المعارف)، إذن، توجد هوة عميقة بين المعارف المجزأة والمقطّعة، والمشاكل المتعددة والشّاملة أو الكوكبية، وبذلك حصل عمى معرفي حجب العديد من المبادئ الصّورية (السياق: وضع المعارف داخل سياقها، والشّمولي أو المجموع الذي

يقسم الكل والجزء المتعدد الأبعاد (الإنساني كائن بيولوجي ونفسي واجتماعي ووجداني وعقلاني) المركب (العقلانية بين الوحدة والتعدد)¹.

ز- **تعليم مواجهة اللايقينيات:** إنَّ اللايقين حاضر في العالم بشكل أو بآخر، والتَّحدي هو مواجهة تلك اللايقينيات، ولمواجهتها على البشرية أن تتعرف عليها، خاصة اللايقينيات المتعلقة بالمعرفة مثل: مبدأ اللايقين الدماغي، والمنطقي العقلي والبيولوجي، والمقصود بلايقينية المعرفة: إمكانية التَّعرض للخطأ والوهم للوصول إلى اليقين المعرفي¹.

ح- **تعليم الحياة أو فنَّ العيش:** يرى جون جاك روسو أن التَّعليم هو تلقين فنَّ العيش في كافة الظروف والأحوال للطفل، وليس تلقينه سبل تحاشي الموت والهلاك¹، ويعتقد موران بنفس الفكرة، أي أن التَّعليم ما هو إلا اكتساب فنَّ العيش، ويؤكد أن كلمة "عيش" تتطوي على معنيين، الأول يشير إلى الحياة البيوفيزيائية والبقاء على قيد الحياة، والثاني أن يعيش المرء حياته بكلِّ النَّفاصيل مع الاستعداد لكافة الاحتمالات والتَّوقعات، إيجابية كانت أو سلبية، صحيح أن البقاء ضروري للحياة لكنَّه لا يعبر عن الحياة التي ينبغي أن نعيش لأجلها¹.

وعلى هذا الأساس فإنَّ التَّعليم ليس مجموعة من المعارف في فروع مختلفة من التَّخصصات يجب معرفتها والاحاطة بها والتَّمكن منها كي يصبح الانسان متعلِّماً، بل هو مشروع كامل وضخم يتضمَّن بالإضافة إلى هذه الأمور تعلُّم العيش في ظل البيئة الإنسانية والعالمية، حيث يحصل الانسجام والتَّناغم، وهنا يضحي التَّعليم مصبوغاً بصبغة أنثروبولوجية، فهو قبل أن يكون تعليم معارف هو تعليم للإنسانية، وعلى ضوء اعتقاده بأنَّ التَّعليم هو فن العيش تمنى أن يعيش كل انسان ويحيى حياته ويخوض معتركها بكل حب وتعقيد وتركيب.

ط- **التَّعليم على الجماليات أو من شقاوة النَّثر الى حلاوة الشَّعر:** إنَّ الشَّعر عند إدغار موران مرادف للسَّعادة، ولا يقصد بالشَّعر القصائد فحسب، بل الحياة الشَّاعرية ككل، أو ما يسميه (شعر الحياة) ذلك أن الحالة الشَّعرية تمنح الإنسان السَّعادة والنشوة والفرح، بل هي لب وقلب كل المسرَّات، والحالة الشَّعرية الانفعالية التي تغمرنا أو تلبسنا حينما ننهب أمام ما يبدو جميلاً ومحبوياً لا تقتصر على الفنانين، ولا تنحصر في حقل الفن، ولكنها تنظم تجارب حيواتنا، ولقاءاتنا، قد تكون حالة تأمل لوجه أو منظر، أو أثناء رقص واحتفال، أو حال سماع أغنية، أو في حالة العشق وبلوغ نشوة الوجد¹.

لقد هيمن النَّثر وحلَّ محلَّ الشَّعر في الحياة المعاصرة، وفي المناهج التَّعليمية، مما أدى إلى تدهور نوعية الحياة. أن يهيمن النَّثر بدل الشَّعر يعني: أن يهيمن الكَم في تنظيم المجتمع والحياة، وأن يهيمن الكَم معناه: أن يصبح كلَّ شيء قابلاً للقياس، وبالتالي تتراجع العاطفة والذاتية وتختفي، حيث تسطع كفاءة الإنتاج المحلي والإحصاءات واستطلاعات الرأي والنمو الاقتصادي¹.

من خلال التَّمييز بين الحياتين الشَّاعرية والنثريَّة يدعونا موران إلى إعادة الاعتبار للحياة الأولى، ولكل ما يرتبط بها، وإلى الاهتمام أكثر بالعلوم الإنسانية والاجتماعية لأنها لا تقلُّ أهمية عن نظيرتها الطَّبَّعية وهذا ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في المناهج الدَّراسية والتَّعليمية.

يقترح موران أن يتمّ تعليم تاريخ الفنون عن طريق موضعة الأعمال الفنية في تاريخها الفني، فلا يكفي تدريس الأدب والشعر والموسيقى بمعزل عن حقبتها الزمنية، وذلك لغرسها في نفوس التلاميذ والطلّاب فهي ضرورية أكثر من الكتب المدرسية لأنها الزاد في سن الرشد والشيوخ¹.

يعتقد إدغار موران أن فترة المراهقة أرض خصبة لئذ الفضائل المعرفية للجماليات والفنون الجميلة ويعود ذلك لكونها فترة مفصلية بين شرنقة الطفولة والدخول في عالم الكبار والحرية، فترة تحقيق الذات والبحث عن الحقيقة، لذلك فإنّ التّعليم في الفترة الإعدادية والثانوية يجب أن يركّز على الفنون والجماليات¹. وهذا الجانب يكاد يكون غائبا في مناهجنا التّعليمية التي تركّز على العلوم البيولوجية والتّقنية حتى أصبحت الشّعب الأدبية يوجّه إليها التّلاميذ الذين لديهم تحصيل دراسي سيئ، بينما يوجّه أغلب التّلاميذ الأوائل والمتفوقين إلى الشّعب العلمية، ويختارون تخصصات تقنية في الجامعات بالرغم من أن فيهم من هم أقدر على كشف وخلق طرق جديدة للتّغيير.

إن رسالة الفن في زمننا المعاصر تشبه عند موران رسالة النبوة فكلاهما يحاول انقراض العالم من الصمم الذي يهيم عليه، بل وتقدّم فهما عميقا للإنسان، لكن رسالة الفنان بقدر نبلها لا تقوم برده فعل ضدّ المجتمع وإنما تتغمس فيه وتحاول التّعبير عنه، وإخراج رغباته، عكس رسالة النبوة التي تنتظر للمجتمع بعين الإصلاح، إذن، فالفن هو بوابة الإنسانية نحو التفاهم والتّفاوض الذي لا ينضب بل وقبل ذلك اعتراف بكياننا الانسي المشترك، وهذا ما يجب أن يغرس في الطفل منذ نعومة أظفاره في المجال التّعليمي، يقول موران: "تكون أفضل في المشاركة الجمالية، من جهة، لأنّه يتمّ التّعبير عن أفضل ما فينا من خلال التّعجب والاعجاب: أن تكون قادرا على التّعجب والاعجاب أمر مفيد جدا للفرد والمجتمع، ونكون أفضل من جهة أخرى، لأننا ننشّط هذه القدرة الإنسانية التي تكون في كثير من الأحيان نائمة أو مجردة، أقصد الفهم"¹.

2-2- من نعلم؟

في مواجهة تحديات التّعليم والتّربية تطرح أسئلة حول أحقيّة فئة معينة بالتّعليم، وتقع إجابات المتخصّصين في مجال التّربية بهذا الخصوص ضمن العديد من المجموعات، وللكشف عن موقف إدغار موران ينبغي تقديم تحليل دقيق، وعلى هذا الصّعيد وبالعودة إلى كتابه "تعليم الحياة بيان لتغيير التّربية" باعتباره المتنّ الأساسي في هذا الموضوع، نجد أنّه تطرق إلى المسألة، حيث يمكن تلخيص نتيجة الدّراسة كالتّالي:

يدعو موران للالتفات إلى كافة عناصر العلمية التّعليمية والتّعلمية بدلا من التّركيز على عنصر دون آخر، ويوصي في خطوة أولى إلى التّركيز على الطّبقيتين المكونتين للفصل المدرسي ألا وهما: المراهقين أو المتعلّمين، والكهول أو المتعلّمين، ويشير أيضا إلى الصراع بين الطرفين، وهو ناشئ في الغالب عن السّلطة والخاضعين لها من جهة، ومن جهة ثانية اختلاف الطّبقيتين في العادات والتّقاليد والتّقاليد مما يؤدي إلى تصادم¹.

برأيه إنّ الصراع مرتبط بالسلطة التي يملكها المعلمون إزاء المتعلّمين، وهو ما يسوق نحو العنف والتّعصب، ويعتقد أنّ التّفاوت بين الطّبقيتين معقد وليس مجرد قضية ترابيّة أحدهما على الآخر (رتبي)، بل أيضا نوعي وثقافي وطبقي، وعلى هذا الأساس لا يحصر الصّراع على سبب واحد، وإنّما متعدّد. كل هذا قاد إدغار موران إلى القول بضرورة أن يكون التّعليم موجه للمربين أيضا او المعلمين وتقع هذه الدّعوة مقابل الحصرية التي ترى التّعليم موجه للمتعلمين فقط.

يعتقد إدغار موران أنّ التدريس يحتاج إلى الحبّ، أي حبّ المدرّس لرسالته ومهمته وتلاميذه (حب البيداغوجيا). صحيح أنّ سلك المدرّسين في التعليم الثانوي أصبح يشكو من خوران العزائم نتيجة تدهور منزلتهم لأسباب عديدة، وهذا ما يقود إلى الكره بدل الحب، وحتى في الجامعة أيضا يعانون من الانغلاق، وما زاد الأمر تعقيدا هو الهاجس النفسي ومقاييس الحاجة والمردودية، كل هذه التّحديات إنّما تدعو المدرّسين للصّمود والدّفاع عن النّقاة وتمييزها، والاعتراف بحق التّلميذ وإيجابياته دون اقصاء¹.

لابدّ من تعليم الفهم والنّقاة بين المعلّمين والمتعلّمين لتجنب أي صراع محتمل داخل الفصل، لأنّه "حين يحتدّ الصّراع داخل الفصل تنشأ ثلاثة أضرب من الإهانة: التّلميذ الذي يهين المدرّس، والمدرّس الذي يهين التّلميذ، والتّلميذ الذي يهين التّلميذ، مما تنشأ عنها معاناة ثلاثية وانعدام ثلاثي"¹. هناك حل لهذه الصّراعات، ويتمثّل في إحلال مبدأ الاعتراف ببعضهما البعض.

إنّ تكوين المربين أو تعليمهم لهو ضرورة حتمية، ذلك أنّ التّربية المجددة ليس لها القدرة بمفردها على تغيير المجتمع نحو الأفضل، لكنها تستطيع تكوين كهول لهم القدرة على كشف الأخطاء والأوهام في نطاق المعرفة والقرار والفهم والفعل¹.

2-3- كيف يجب أن نعلّم (الاستراتيجيات والمناهج)

يعتبر إدغار موران رائد الفكر المركب مقابل الفكر التّبسّطي، فمنذ ستينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا ومن خلال استقراره لتاريخ الفكر والمعرفة الانسانيين يدعوا إلى اتباع النهج التّركيبي، وذلك لا يعني نفي واقصاء الفكر التّبسّطي المبالغ فيه، وإنّما القبول بهذا وعدم نفي ذلك.

لا يمكن إنجاح التّربية ومن ثمّ التّعليم إلّا بالفكر المعقد. والتّعقيد أو المعقّد يشير عادة إلى الاضطراب والغموض حال الوصف، أمّا الفكر المعقد أو المركّب فهو الفكر الهادف إلى تجاوز الصعوبات والاضطرابات والغموض والوهم والانزلاق في التّفكير لاعتماده على فكر منظمّ له قدرة على الفصل والرّبط¹. انطلاقا من هذه المعضلة يرى موران أنّه لا يوجد أي حوار بين النّقاة العلمية والإنسانية، أو بين العلوم الطّبيعية والعلوم الإنسانية، لذلك فالتّفكير المعقّد يمنحنا إمكانية ربط الانسان بالطّبيعة والكون، بل وحتى إمكانية فصله عنهما، رغم وجود العديد من العراقيل التي من شأنها تأخير النتائج المرجوة، منها: البنى الذّهنية والمؤسّساتية، والنّماذج التجزيئية والتّبسّطية¹.

يمكن تقديم مثال عن الفكر المركب بتفسير طبيعة التّعلّم بطريقة مغايرة كما أقرته النّزعة الفطرية التي تذهب للاعتقاد أنّنا لا نتعلّم إلّا ما كنا نعرفه من قبل، والنّزعة الإنسانية التي تقول بأنّ التّجربة هي المصدر الوحيد لتعلّمنا عن طريق التّأكيد على التّحاور المنظمّ بيننا وذاتنا بين الفطري والمكتسب والمبني أيضا¹.

يؤكد موران على التّركيب بين استراتيجيات التّعلّم بقوله: "يفترض البناء بناء، ويفترض التّعلّم شيئا قبلها، ويفترض الاكتساب شيئا فطريا، فالجهاز العصبي الدّماغي هو البناء القبلي الذي يحوز القدرة على التّعلّم"¹.

لكن السّؤال المطروح هنا وفي سياق الحديث عن الفكر الرّابط من أين نبدأ محاضرات الترابط البيولوجي الإنساني لإثبات أنّ الجانبين معا لازمان للفكر؟. للإجابة عن هذا السّؤال يعتقد موران أنّ البداية يجب أن تكون انطلاقا من المدرسة الابتدائية فهي الأساس الذي يبني عليه الفكر المركب صحيح أنّ الفكر الرّابط موجود لدى الطفل في مراحل

الألى لكن بشكل غير منظم، عن طريق الإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى: من نحن؟ ومن أين جئنا؟ وإلى أين نسير؟، يمكن الارتقاء إلى مستويات أرفع في بيان الترابط¹.

أما مرحلة التعليم الثانوي فيدعو موران إلى أن تكون مرحلة للربط بين المعارف والثقافة العامة والثقافة العلمية، والفكرين العلمي والفلسفي، بمعنى أن ادغار موران يرتضي في هذه المرحلة قبول جميع التخصصات والعلوم الطبيعية كانت أو إنسانية، حيث لا ينفى العلوم ولا الأدب ولا الفلسفة ولا حتى الفن والتاريخ، فبينما يعلمنا الأدب فن الحياة يربطنا التاريخ بهويتنا المتعددة¹.

أما عن الجامعة فيعتقد أنها عابرة للأوطان، ويجب جعلها عابرة للاختصاصات أيضا، ولجعلها كذلك يجب اصلاح الفكر أولا لأنها هي الأرض الخصبة لتطور تجديد وتداول المعارف والأفكار¹.

ويبدو أن موران يقدم لنا أساسا للتمييز بين الفهم البسيط والفهم المركب، يكمن في التواصل، التناغم، والترابط بين مختلف فروع المعرفة وتخصصاتها، مع منح كل منها حق التطور والتنامي بحرية تامة، فالمنظوماتية والعضوية التي يجب أن تكون بين التخصصات لا تعني التصلب والجمود، وإنما حركة سلسلة لتداعي المزيد من المعارف وتطورها وارتقائها.

إن الاختلاف الحاصل بين العلوم الطبيعية والإنسانية لا يجب أن يستمر، من هنا دعا إدغار موران للتعليم متعدد الاختصاصات، وبالتالي حلقة العلوم والتي تعني كسر هرميتها، فلا الفيزياء هي قاعدة الهرم المعرفي ولا العلوم الإنسانية رأسه، لأن الفيزياء إنما ظهرت وتطورت على امتداد تاريخ المجتمعات - منتج تاريخي اجتماعي انساني - ونفس الشيء بالنسبة للعلوم الطبيعية والإنسانية المترابطتان تماما¹، ومن ثم يجب تجاوز النموذج الرسمي للجامعة التي تكون وتوجه المناهج والنخب.

خاتمة:

ذكرنا في ثنايا هذا البحث أن إدغار موران ضمن أبحاثه ونشاطاته العلمية دعا إلى المنهج المركب، حيث بادر إلى تحليل ومعالجة مختلف المواضيع وفق هذا المنهج، حيث أن كل أبحاثه دونت في نطاق قواعد الإدراك المعرفية والعقلية والتفسير والترتيب واستكشاف الروابط بين مختلف فروع المعرفة، والهدف الرئيسي من وراء كل هذه المساعي هو تجاوز الأزمة المعرفية والابستمولوجية، ومحاولة راب الصدع بين مختلف فروع المعرفة. نستنتج من جملة ما ذكر أن المنهج المركب يتلاءم مع التعليم، حيث من الممكن الاعتماد عليه لحل مشاكل التعليم وأزماته وتطويره.

فيما يتعلق بالتربية والتعليم عموما يجب أن يتأسس على مبادئ المنهج المركب، الذي لا يجزئ المعارف البشرية ولا يقبل بها وفق مبادئ العقلانية التبسيطية والتجزئية والتفصيلية، كي لا تتعارض مع الطبيعة الإنسانية التي تتمتع بالتركيب، وتشارك بالإضافة إلى ذلك في الشعور بالانتماء الهوياتي الأرضي، من هنا فمن تحديات التعليم الحقيقي هي تنمية الوعي بالمصير الكوكبي المشترك، والتخلي عن الحتميات التاريخية المهيمنة على النظم التعليمية واستبدالها في خطوة جريئة باللايقينيات مما يسهل التفكير في المصير الكوكبي، وهيئته لتجاوز كل خطر محتمل.

إننا في العالم العربي ككل بحاجة إلى إعادة النظر في التعليم وبرامجه، وأن نقبل بإيجابيات المقترح الموراني خاصة فيما يتعلّق بإنسانية الإنسان والانفتاح والتواصل ونبذ خطابات العنف والكرهية، والصراع والاهانة، للمشاركة في دعم إنسانية عالمية، ومواطنة أرضية تقوم على الإيروس أو الحب والفهم والاعتراف.

صحيح أن هناك عوائق كثيرة تقف في سبيل تحقيق ذلك، أهمها اختلاف الواقعيين العربي والغربي مما ينجم عنه اختلاف في إمكانية تطبيق تلك المقترحات، فإذا ما قارنا الجامعات الغربية بالعربية على سبيل المثال نجد فروقات شاسعة من عدة نواحي: معرفية (البرامج والمواد المعرفية والمناهج)، اقتصادية (نقص التمويل وغياب التكنولوجيا) اجتماعية واستشراعية (غياب رؤية شمولية)، كما أن هذه الجامعات متواجدة في أوساط مضطربة، تملأها الحروب والأزمات والنكبات مما يجعل من مسارها الارتقائي مهدداً في أية لحظة بالعودة إلى نقطة الانطلاق في ظل غياب الحوار والتفاهم والانفتاح والتعقيد الذي يدعو إليه موران.

ومع ذلك، من واجب الجامعة باعتبارها فضاء وحاضنة معرفية أن تواكب التطورات الحاصلة في مختلف الجامعات الغربية، وأن توشّح العلاقات معها، فتأخذ منها وبالمقابل تقدّم لها الخبرات والمناهج والمعارف، وليس الأدمغة كما هو واقع حالياً.

كل هذا يتطلب اهتماماً أكبر بالنخب التي من شأنها أن تقدّم أبحاثاً رائدة باعتبار الأخيرة عصب الجامعة وذلك عن طريق تقديم الدعم والتحفيز اللّازمين، وبذلك يتوقّف التّزيف المعرفي الذي سبقه نزيف اقتصادي وآخر سياسي وأخير تاريخي. إنّ الجامعات العربية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى -في ظل التحولات الثقافيّة- أن تحافظ على مكتسباتها وأصالتها وأن تقدّم بصمتها في اثراء الحياة الأرضية، ومواجهة الأزمات المتعدّدة.

الإحالات والهوامش:

- ¹ - جان بودريان، إدغار موران، 2005، عنف العالم، ط1، تر عزيز توما، اللائقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص70.
- ¹ - روني غينون، 2017، أزمة العالم الحديث، ط1، تر عبد الباقي مفتاح، اريد، الأردن، عالم الكتب الحديث، ص6.
- ¹ - إدغار موران، 2008، في مفهوم الأزمة، ط1، تر بديعة بوليلة، بيروت، دار الساقى، ص11، 12.
- ¹ - المصدر نفسه، ص29.
- ¹ - المصدر نفسه، ص25.
- ¹ - إدغار موران، 2012، هل نسير إلى الهاوية، تر عبد الرحيم خزل، الدار البيضاء، المغرب، أفريقيا الشرق، ص26.
- ¹ - إدغار موران، 2016، تعليم الحياة بيان لتغيير التربية، ط1، تر الطاهر بن يحيى، بيروت، منشورات ضفاف، ص55.
- ¹ - إدغار موران، 1995، روح الزمان: النخر، تر أنطون حمصي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ص368.
- ¹ - إدغار موران، 2002، تربية المستقبل: المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ط1، تر عزيز لزرق، منير الحجوجي، الدار البيضاء، دار توبيقال، ص57.
- ¹ - إدغار موران، تربية المستقبل، المصدر السابق، ص45، 46،
- ¹ - المصدر نفسه ص55
- ¹ - إدغار موران، 2009، النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية، ط1، تر هناء صبحي، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، ص268.
- ¹ - المصدر نفسه ص274.
- ¹ - المصدر نفسه، ص276.

- 1 - المصدر نفسه ، ص284.
- 1 - إدغار موران، تربية المستقبل، ص83.
- 1 - المصدر نفسه، ص83
- 1 - المصدر نفسه، ص88.
- 1 - إدغار موران، تعليم الحياة، مصدر سابق، ص142.
- 1 - إدغار موران، تربية المستقبل، مصدر سابق، ص108.
- 1 المصدر نفسه، ص24،19.
- 1 - المصدر نفسه، ص21.
- 1 - إدغار موران، تعليم الحياة، المصدر نفسه، ص95.
- 1 - إدغار موران، تربية المستقبل، المصدر السابق، ص35-38.
- 1 - المصدر نفسه، ص68
- 1 - جان جاك روسو، إميل، تر نظمي لوقا، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ص3.
- 1 - إدغار موران، دروس قرن من الحياة، 2022، ط1، تر خليل كدري، المملكة العربية السعودية، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ص47.
- 1 - إدغار موران، دروس قرن من الحياة، المصدر السابق، ص55،54.
- 1 - المصدر نفسه، ص56.
- 1 - إدغار موران، 2019، في الجماليات، تر يوسف تيبس، قطر، وزارة الثقافة والرياضة، ص111.
- 1 - المصدر نفسه، ص105.
- 1 - إدغار موران، في الجماليات، المصدر السابق، ص108، 109.
- 1 - إدغار موران، تعليم الحياة، مصدر سابق، ص81، 82.
- 1 - إدغار موران، تربية المستقبل، مصدر سابق، ص89، 91.
- 1 - المصدر نفسه، ص88
- 1 - المصدر نفسه، ص63
- 1 - إدغار موران، تعليم الحياة، مصدر سابق، ص109.
- 1 - إدغار موران، تربية المستقبل، المصدر السابق، ص110، 111
- 1 - موران، 2013، المنهج، ج3، ط1، تر يوسف تيبس، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ص67.
- 1 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 1 - إدغار موران، تعليم الحياة، مصدر سابق، ص114.
- 1 - إدغار موران، تعليم الحياة، مصدر سابق، ص115، 116.
- 1 - إدغار موران، تربية المستقبل، مصدر سابق، ص106.
- 1 - إدغار موران، تعليم الحياة، المصدر نفسه، ص117.